محمد أبي سمرا

روائي وصحافي لبناني.

ولد سنة 1953.

يعمل في الصحافة الثقافية والتحقيقات منذ عام 1977.

يعمل حالياً مدير قسم التحقيقات الأسبوعي في صحيفة «النهار».

مؤلفاته:

بولين وأطيافها – رواية – 1990.

الرجل السابق – رواية – 1995.

سكان الصور – رواية – 2003.

بلاد المهانة والخوف – رحلات – 2004.

أقنعة المخلص: شهادات في الشيعة العونية وإمامها

كتاب مشترك مع وضاح شرارة – سير وشهادات – 2009.

رواية البنى التحتية

لشخصيات موصومة

١

أمامي الآن على طاولة الكتابة أكثر من 50 شريط كاسيت سجلت عليها سيراً حياتية لأشخاص وشهادات عن تجارب وحوادث عاشوها وخبروها في أزمنة مضت من حياتهم. تسجيل هذه الأشرطة بأصوات الأشخاص أنفسهم ولغاتهم الشفهية، استغرق ساعات وساعات من مجالستهم واستنطاقهم وسؤالهم، بعد التعرف إليهم ونسج علاقات متفاوتة معهم. لكنني حتى الآن لم أجد متسعاً من الوقت للاستماع إلى هذه الروايات الشفهية وتدوينها بلغتها المحكية، قبل نقلها نقلاً دقيقاً إلى اللغة الكتابية. فمنذ أكثر من 30 سنة اعتمدت في جزء وفير من عملي الكتابي، الصحافي والبحثي، على تسجيلات شفهية لسير وتجارب وشهادات في مجالات حياتية مختلفة ومتنوعة.

لكنني في روايتي الثانية الرجل السابق (1995)، لم أستخدم من سيرة الشخص التي استغرق تسجيلها أكثر من 20 ساعة ودوّنت ما رواه صاحبها بلغته الشفهية على مئتي صفحة، سوى مناخاتها الأساسية وبعض إيحاءاتها وحوادثها. ذلك أنني حين شرعت في تحويل سيرة الشخص المسجلة إلى رواية، كنت قد عزفت عن كتابتها كشهادة في بحث جامعي في علم الاجتماع الثقافي.

٢

في الأعمال غير الروائية، يعدّ نقل الروايات الشفهية المحكمة المسجلة نقلاً دقيقاً، إلى اللغة العربية الفصحى الكتابية، عملاً تأليفياً وفنياً، يبدأ بالعثور على خيوط الرواية وبؤرها، لنسج هذه الخيوط والبؤر وشبكها وتركيبها في فضاء سردي قصصي ودرامي، يظل أميناً للرواية الشفهية، قدر أمانته أيضاً لإخراج الرواية الشفهية نفسها من زمنها عبر إقامة مسافة عنها والنظر إليها من خارجها. والعملية هذه قد تشبه تحويل سيناريو مكتوب على الورق إلى فيلم سينمائي.

٣

في روايتي الرجل السابق استعملت سيرة الشخص الذي سجلت سيرته على نحو تفصيلي، استعمالاً شخصياً حراً، من دون أن أكون أميناً لها قط. فما كتبته في الرواية لم يرو صاحب السيرة جملة واحدة منه. لكنني أتخيل أن الشخصية الروائية المكتوبة في الرواية أقرب إليه من نفسه وغريبة عنه غربة تامة، في وقت واحد، كأنها عرّفته على ما لا يعرفه ولم يختره في حياته. وأنا شخصياً، كاتب هذه الشخصية الروائية، كنت مثل صاحب السيرة، أتعرف على نفسي كما لم أعرفها من قبل، وأغترب عنها كأنني لا أعرفها قط، بل أتعرّف عليها في أثناء الكتابة. وشأني في هذا شأن القارئ أثناء قراءته الرواية. وهذا يعني أن مصير الشخصية الروائية يجري تأليفه في كل جملة من جمل الرواية، بوصفه مصيراً مجهولاً وغامضاً قبل كتابة كل جملة.

٤

ما كتبته في الجملة الأولى من الرجل السابق، يكاد يقول البؤرة الدرامية في الرواية كلها: «في زيارتي الأخيرة للبنان، أنا المقيم منذ سبع عشرة سنة في فرنسا، اكتشفت كم أنني، في خلقي وحركاتي ونبرة صوتي وملبسي، ما أزال أشبه رفاق طفولتي وصباي في حيّ سليم مسعد الذي ولدت وولد إخوتي، وأبي قبلنا، في كوخ من أكواخه. وفي بيروت، لما استعدت بعضاً من مشاهد حياتي البيتية في ليون، شبّه لي أن زوجتي الفرنسية، مونيك، وأبنائي الفرنسيين الثلاثة، ولدوا أيضاً في الكوخ نفسه».

لكن راوي سيرته لم يوح قط بهذه الجملة التي استغرق بيانها وإثباتها والتمثيل عليها صفحات الرواية كلها، كأن مرور الوقت لم يقو على تغيير شيء حقيقي يذكر من حياة الراوي ومصيره، منذ طفولته الأولى. لذا يمكنني القول إن رواية الرجل السابق عمل معاكس للرواية. أي إنها تروي ما لا يتغير ولا يتبدل في حياة الشخص ومصيره الذي يكاد يكون مكتملاً على نحو مسبق، رغم كونه مجهولاً وغامضاً. كأن حياة واحدة لا تكفي لتبديل شيء وتغييره في حياة هذا الشخص ومصيره.

الرجل السابق هو شخص ولد من أم عديمة الأنوثة. وهذه ولادة قدرية تشبه وصمة وجودية لا شفاء منها. لذا يعيش حياته كلها، محاولاً توليد نفسه وجسمه من أم أخرى فائضة الأنوثة. والأنوثة التي يطاردها هذا الرجل، هي أنوثة النساء اللواتي جعل التمدّن والتحديث أجسامهن أقرب إلى نساء الإعلانات. ذلك لأنه يتخيّل أن رقة هذه الأنوثة وحدها، قادرة على محو وصمته، وصمة ولادته من أم قتلت أنوثتها منذ الولادة.

٥

السير والشهادات المسجلة على أشرطة كاسيت، أستعملها لكتابة ما تغيّره وتبدّله الحياة والزمن في الأشخاص، أي كتابة الزمن الاجتماعي والثقافي المتحول والمتغير في حياة واحدة أو في جيل، أو من جيل إلى جيل آخر. أما في الرواية فإنني أكتب ما لا يقوى البشر على تغييره وتبديله في حياتهم وأجسامهم وأنفسهم طوال أعمارهم القصيرة، رغم قدرتهم على الانتقال من زمن اجتماعي وثقافي إلى آخر، من بيئة ولغة إلى بيئة ولغة أخريين.

هل أقول إنني أروي ما لا يتبدّل ولا يتغيّر في الأشخاص؟!

وكيف تكون الرواية رواية، إذا كان دأبها رواية الثبات؟!

لا أدري.

لكن المؤرخ الفرنسي الكبير الراحل فرنان بروديل، جعل دأبه في كتابته التاريخية كلها، التأريخ للبنى شبه الثابتة في الحضارات الإنسانية. وهو سمّى هذا النوع من التأريخ: تأريخ الأمد الطويل، أي التأريخ للبنى التحتية شبه الثابتة للحضارات.

هل تستطيع الرواية أن تروي ما يمكن تسميته البنى التحتية شبه الثابتة في الشخصيات الإنسانية؟

أظن أن بولين وأطيافها والرجل السابق وسكان الصور محاولات لرواية مصائر شخصيات تشعر بأن جريان الزمن وتقلبها في العيش لا يبدّل مصائرها. أو هي رواية كيف تتكون نواة ثقافية وراثية أو متوارثة في شخصية إنسانية. أو رواية كيف يعي شخص ما تكوّنه الشخصي الذي يتحكم بمصيره.